الأسطول البحري ودوره في إيالة الجزائر خلال القرن 11هـ/17م

أ/ ابنسعيدان محمد
جامعة عمار ثليجي
- الأغواط -

الملخّص:

تعرّضت البحرية العثمانية لانتكاسة في معركة ليبانت، ولكن الاسطول البحري الجزائري على العكس من ذلك فقد اشتهر في عرض البحر المتوسط أكثر مما سبق، فالقرن السابع عشر يعد العهد الذهبي للبحرية الجزائرية في العصر الحديث، لقد فرضحكام الجزائرهيبة الدولة من خلال الاسطول البحري فكل الدول الاوربية سواء الكبرى منها او التي كانت امارات تسابقت لعقد علاقات مع الجزائر في اطار حماية تجارتها، في حين نجدها قد انتظمت في احلاف عسكرية كذلك للنيل منها.

Abstract

The Ottoman navy. suffered a setback in the Battle of Lepant ,but the Algerian navy on the contrary was more famous for the Mediterranean than before .The17 th century was the Golden Age of the Algerian Navy in modern times. The rulers of Algeria imposed the prestige of the state through the naval fleet. European countries, the largest of which, or which were emirates to have had relations with Algeria in the framework of the protection of trade, while we have been organized in military alliances as well as to undermine them.

Keywords: Algerian Fleet - province Algeria - Otto**man Navy - Mediterranean Sea**

الكلمات المفتاحية: الاسطول الجزائري- ايالة الجزائر- البحرية العثمانية - البحر المتوسط.

مقدّمة:

مثّل القرن 17 م في الجزائر أرقى عصور الجهاد البحري خلال العصر الحديث و كانت قد عرفت فيه أوج قوتها و الحديث عن الظروف التاريخية التي أفرزت ظاهرة الجهاد البحري على امتداد سواحل المغرب الاسلامي كشكل من أشكال الدفاع تارة ،ومظهر من مظاهر الرفض الرسمي للهيمنة الأوروبية و تهديداتها في ظلّ اختلال القوّة تارة أخرى،ينبغي أن لا يخفي الوجه الآخر للقرصنة الأوروبية المتمثّل في نشاط القراصنة الأوروبيين.[1] ومن هذا المنطلق نطرح الاشكالية التالية الى اي مدى ساهم الاسطول البحري في بناء الايالة و فرض مكانتها على الساحة المتوسطية؟

أولا– ظروف و عوامل نشأة الاسطول البحري:

هنا لابد من الإشارة إلى حقيقة هامة وهي أنّ كلا القرصنتين ليستا وليدة ظروف الكشوف الجغرافية والطرد الأندلسي فحسب بل هما امتداد لاحتكار حضاري وصراع عسكري تجلّت أبرز مظاهره خلال الحروب الصليبية المتوالية ابتداء من العصر الوسيط ،ومن هذا المنطلق يمكننا التشديد على دور العامل الديني في تحريك الجانبين نحو الصدام وكونه ظلّ عاملاً فاعلاً في ذلك الاحتكاك.

اقتحم العرب المسلمون مجال البحر ولم تكن لهم حاجة في ممارسة الجهاد البحري فكانت هجماتهم البحرية تهدف إمّا لتأمين الفتوحات الاسلامية ،أو على شكل حروب بحرية دفاعية هدفها ضرب اقتصاديات العدو فكانت ملتحمة بمفهوم الجهاد في سبيل الله الذي يعتبر ركناً من أركان الإسلام الأساسية ،كما يستمد مقوّماته الشرعية من وصايا الصحابة والخلفاء الراشدين ومن فتاوى الفقهاء واجتهادهم[2].

يقول «ابن خلدون»في هذا الصدد:»إنّه بدأ بصفة منظّمة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر،بعد أن ضعفت أساطيل المسلمين ،و أصبحت الغلبة للفرنجة في البحر المتوسّط ،وعندما أصبحت الأمم النصرانية دولاً متعددة،يجمع النفر والطائفة من غزاة البحر ويصنعون الأسطول ويتخيّرون له الأبطال الرجال ثم يركبون إلى سواحل الفرنجة و جزائرهم على حين غفلة فيخطفون منها ما قدروا عليه ،و يصادمون ما يلقون من أساطيلا لكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي و الأسرى «.

تقول «كورين شوفالييه «في كتاب «الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر»:»إنّ القرصنة هي حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب..إذ بالنسبة للمسلمين فإنّ القرصنة قبل كل شيء هي شكل من أشكال الجهاد في البحر»[3].

ذكر الأسير « دييغو دي هايدو»(Diego de Haédo)بعض من صفات البحارة الجزائريين قائلاً: (...يبحرون شتاءاً ،وربيعاً دون خوف ،و يجوبون البحر المتوسّط من شرقه إلى غربه ،دون أن يعيروا أي اهتمام لمراكبنا مستهزئين ببحارتنا الذين يستأنسون بملاهي الموانئ المسيحية حتى يخيل للمرء أنّهم–قراصنة الجزائر–يخرجون لصيد الأرانب البريّة فيقتلون واحد هنا والآخر هناك ،و هذا راجع لكون المراكب الجزائرية خفيفة تسبق الريح على عكس المراكب المسيحية الثقيلة التي لا تستطيع مطادرتها ومنعها من الغزو حسيماً يحلوا لهم ،و القراصنة يهتمون جداً **بالنظام** والنظافة وتنظيم

المراكب وللإبحار ببطء وضدّ الريّاح فإنّه مسرح لأيّ كان حتى ولو كان نجل الباشا نفسه أن يغيّر مكانه،أو يتحرّك من المكان المتواجد فيه..)[4].

ثانيا– رجال و عتاد الاسطول:

للحديث عن أعداد هذه الطائفة فستستند إلى»دوماي «الذي قدّر عددهم بحوالي أربعة آلاف رجل ،أضف إلى هذا العدد مجموعات أخرى ،عززّت هذه الطائفة كالملاحقين و الذين كان أغلبهم مسيحيين ،و يهود مقيمين في الجزائر ،و كانوا يقومون بأدوار تقنية،معينة (صناعة السفن ،مدافع...)و قد ساهمت هذه الطائفة في تطور النشاط البحري بشكل كبير ،فإلى جانب معرفتهم ببعض القواعد النظرية لفن الملاحة كمعرفة حركة النجوم و قراءة البوصلة و اتجاهات الرياح.كانوا معروفين بشجاعتهم.

يقول «حمدان خوجة» في هذا الصدد:(....و هناك أمثلة رائعة عن استعداداتهم الطبيعية،و منهم من يتولون على السفينة في رحلتهم الأولى ،و هم يجهلون مبادئ الملاحة الأولية،و سيما أنهم يعرفون الجبال و قممها معرفة جيدة ،و قد كانوا يتمكنون من التمييز بدقة بين نقطة و أخرى...)،و هذا إن دل على شيء إنما يدل على ذكاء هؤلاء الرجال و علمهم و استعدادهم للتكيف مع الحياة البحرية.

كما لم يكن الرياس بحارة عاديين بشهادة المؤرخين المسلمين ،و منه ما نقله لنا السفير «التمقروتي «أثناء إقامته بالجزائر أواخر القرن 16 م و بداية القرن 17 م حيث يقول :»...و رياس الجزائر موصفون بالشجاعة و قوة الجأش،و نفوذ البصيرة في البحر،يقهرون ،النصارى في بلادهم». ساهمت هذه الفئة في ازدهار النشاط البحري بدرجة كبيرة خاصة في القرن 17 م الذي تعزز برياس عِظام أمثال:»عليبتشين ،و مامي أرناءوط ،و جعفر جنويز...»و غيرهم بالرغم من تمتع هذه الطائفة بنوع الاستقلالية في القرن 16 م إزاء سلطة الوالي[5].

كان قد أُطلق على الحروب البحرية في القرن 15 و 16 م لفظ القرصنة هذا المصطلح الذي يُعرفه المؤرخ الجزائري «ابن أشنهو «بما يلي:»...فلا يوجد لهذا المصطلح مرادف في اللغة العربية إنما استعربت في القرن 9 هـ و كان يسمي من يتعاطاها قرصانا «و هم مُعَرَوفون عند»ابن خلدون «بغزاة البحر،و قد مَهَرَ فيها الأتراك و الجزائريون و خصوصا منهم أهل بجاية و شرشال و وهران[6]

يعتبر النشاط البحري قديما قدم التاريخ ،فلم يكن إذا وليد القرن 16 م بل يعود جذوره إلى أبعد من ذلك بكثير إلا أن ازدهار النشاط البحري بدأ منذ القرن 16 م،و ارتبط بتطور السفن الملاحية،و ازدهار التجارة البحرية و تحول الحرب الدينية بين الهلال و الصليب من الحروب البرية إلى الحروب البحرية ضمن إطار المبدأ الذي ينص على أنه (من يملك ،يملك البر)،إلاّ أن لهذا النشاط قوانين تحكمه و نظامه الدولي الذي يأطره ،و في هذا يقول» فرنان بروديل»:(.... فالقرصنة ظاهرة قديمة في المتوسط لكنها تختلف عنها في الأطلسي ،في أن الأولى لها قواعدها و أعرافها التي كانت تقوم بينها إلى تبادل القرصنة صلات...) [7].

كان مجاهدي البحر ينشطون بطريقة قانونية معروفون و مدفوعون من طرف حكومتهم ،إذ كانوا يحصلون على تصريحات مكتوبة قانونية المعروفة باسم «رسالة العلامة»،و التي تسمح لهم بمجابهة السفن التجارية للدول الأعداء و

في واقع الأمر كانت القرصنة تعتبر بمثابة انتفاضة لأفعال غير العادلة التي يمارسها لصوص البحر،إذ أنها كانت تسعى من أجل تقليص العنف في البحر.و كانت أول رسالة مكتوبة و مرخصة من طرف»فيليب أوغست «في ماي من سنة 1206 م،التي سمحت لهؤلاء بالتجول في البحر برعاية الملك:»إذ تعود أصول النشاط البحري إلى القرن 13 م،لكنها بلغت أوّج نشاطها في الفترة الممتدة من القرن 16 م إلى غاية القرن 19 م في حوض الأبيض المتوسط[8].

ثالثا– مراحل تطور الاسطول البحريو فرض مكانة الايالة دوليا:

يجمع مؤرخو الجزائر على أن هذه الحقبة التاريخية تمثل العصر الذهبي للبحرية الجزائرية ،فلم ينقض العقد الثاني من القرن 17 م حتى بلغت البحرية الجزائرية قوة خارقة ،و في سنة 1634 م حسب ما أورده الراهب»دان «فإن الأسطول الجزائري كان يتشكل من 70 وحدة منها ما هو مسلح بـ25 مدفعا و منها بـ40 مدفع و استمرت الجزائر محافظة على هذه القوة حتى حلول النصف الثاني من القرن إذ نوَهَ «لاكروا «بأن البحرية الجزائرية لا يمكن أن تضاهيها بحرية أية دولة أخرى «لا وجود لبحارة أُقوى من البحارة الجزائريين لقد انطلقوا في البحر سنة 1656 م بـ23سفينة،يتراوح تسليح كل واحدة منها بين ثلاثين و خمسين مدفع و يصل طاقم بعضها إلى 400 شخص[9].

أثر النشاط البحري للجزائر بدرجة أكبر في القرن 17 م على مصير العلاقات بين البلدين التي كانت عليه في القرن 16 م التي اتّسمت بالتعاون الحذر،خاصة في عهد»خير الدين «الذي قدم يد العون للفرنسيين في حربهم ضد»شارل الخامس»الإسباني في عام 1543 م.

لكن مع بداية القرن 17 م و حتى نهايته ،فشل البلدين في تحقيق التقارب الطويل الأمد ،و يعود السبب الرئيسي في ذلك إلى دور النشاط البحري للجزائر ،و الذي شكل آنذاك شوكة في حلق الفرنسيين ،و أهم مظاهر ذلك معاهدة 1619 م التي فشلت بسبب اعتداء البحارة الجزائريين على سفن تجارية مرسيلية ،دون علمهم ببداية المفاوضات بين الطرفين ،لعقد الصلح بينهما مما أدى إلى فشلها ،و دخول البلدين في قطيعة دامت لأكثر من عشر سنوات،لم تستطع الجزائر و فرنسا تحقيق سلم دائم ،رغم وجود نية ذلك عند الجزائريين نتيجة عدم جدوى العهود التي كان يقدمها الفرنسيين ،خاصة في عهد الملك «لويس الرابع عشر «الذي أظهر نواياه علانية ضد الجزائر بتجهيز حملة لاحتلال جيجل عام 1664 م[10].

و من خصائص القرن 17 م على الصعيد الخارجي أيضا اتساع نطاق تعامل الجزائر ،فلم تعد فرنسا الطرف الوحيد الذي تتعامل معه بل أشتمل كذلك إنجلترا و هولندا ،كدولتين تجاريتين و كانتا الاثنتان قد شقتا الطريق بغية الإنفراد بالتجارة الدولية و خاصة التجارة مع المشرق ،بتأسيسها الشركات التجارية الكبرى ذات التنظيم المحكم كشركة الهند الشرقية البريطانية.

مما دفع بريطانيا بالتفكير في توطيد مركزها في البحر الأبيض المتوسط صراعها مع إسبانيا في عهد «فيليب الثاني «،فسعت إلى التقرب من الدولة العثمانية ،و كلّلت مساعيها بالتوفيق إذ رَحَبَ السلطان العثماني بالتجار الإنجليز في أقاليم الدولة العثمانية جمعا ،و منذ الثمانينات من القرن 16م دخل الإنجليز البحر

الأبيض المتوسط و لم يلق تجار منهم أو بحارة أية صعوبات خاصة و أن إنجلترا كانت في حرب مع عدو الجزائر التقليدي إسبانيا. و قد أضحى الإنجليز حلفاء طبيعيين لرياس الجزائر في تلك الحقبة[11].

مع مطلع القرن 17 م ظهر الهولنديون في البحر الأبيض المتوسط بعد أن آمنوا شر الإسبانيين بفضل المعاهدة التي وقعت بينهما سنة 1603 م،و كان اصطدامهم بالبحارة الجزائريين منذ الوهلة الأولى ،و تكبد الهولنديون من جراء ذلك خسائر معتبرة فبلغت خسائر العقد الأول من تواجدهم في البحر الأبيض المتوسط ،40 سفينة ممّا دفع بهولندا إلى التفاوض مع حكومة الجزائر في 1622 م و لم تتمكن هولندا من إبرام المعاهدة إلا بعد الحملة العسكرية التي وجهتها ضد مدينة الجزائر في 1622 م[12].

مما لا ريب فيه أن ظهور إنجلترا و هولندا كمنافستين خطيرتين قد أثر تأثيرا بالغا على العلاقات الفرنسية الجزائرية إذ أصبحت الامتيازات التي احتكرتها فرنسا وحدها خلال معظم القرن 16 م محل تنافس ثلاثي:–فرنسي، إنجليزي، هولندي[13]–.

كما يعتبر القرن السابع عشر عصر التفوق البحري لإيالة الجزائر و سيطرتهم على البحر الأبيض ،و عبورهم المحيط الأطلسي إلى إسلاندا و البلطيق و بفضل هذه القوة استطاعت أن تصبح القوة الأولى بحريا في المتوسط فكما يذكر صاحب تحفة الزائر»...كانت لها اليد الأولى في البحر الروسي ،و كانت بعوثها و غوازيها كثيرا ما تشمل الثغور الإفرنجية بالخشف و الدمار...».

بلغت قوة البحرية الجزائرية درجة كبيرة من التطور و بشهادة السفير الإنجليزي «كتونغهام» الذي قال:»...إن قوة و جرأة قراصنة شمال إفريقيا هما الآن على هذا النحو من الضخامة سواء في البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي،و أشهد أن لم أعرف في حياتي شيئا قد جلب إلى البلاط الإسباني الأسى العميق و الخراب الكثير غير هؤلاء القراصنة...»[15].

تطورت أهداف البحرية الجزائرية غير أن هذا التطور لم يكن بين عشية و ضحاها،بل كان نتيجة تطورات سياسية و اقتصادية و اجتماعية ،شملت الجزائر و كل دول حوض البحر الأبيض المتوسط،و على هذا الأساس يمكن القول أن البحرية الجزائرية قد مرّت بثلاث مراحل أساسية و هي:

مرحلة الجهاد البحري (حرب الرمادات):كانت البحرية الجزائرية غداة تأسيس الدولة الجزائرية سنة 1519 م موسومة بطابع جهادي صرف،لأن معظم أراضي شمال إفريقيا كانت تحت السيطرة الإسبانية ،لذلك عمل بيلربايات الجزائر على محو التواجد الإسباني المسيحي في أراضي المسلمين ،كما حاولت البحرية الجزائرية بقيادة رياسها المحنكين ،الاستيلاء على عدد من الجزر المتوسطية و التي كانت محل صراع بين المسلمين و المسيحيين ،نظرا لما لها من أهمية إستراتيجية في السيطرة على الملاحة البحرية في البحر المتوسط و في هذا يقول المؤرخان الجزائريان «ناصر الدين سعيدوني»و «المهدي بوعبدلي»:(لقد كان الجهاد البحري في الجزائر،ردّ فعل مباشر على التهديدات المسيحية التي اتّخذت إثر سقوط الأندلس في أواخر القرن 15 م شكل حملات صليبية تباركها الباباوات بروما و تزكيها الحكومات الأوروبية ،و تتزعمها إسبانيا الكاثوليكية)[16].

كانت البحرية الجزائرية موجهة لضرب البحريات الأوروبية الصليبية،و لإنقاذ المسلمين الأندلسيين ،ففي تلك الظروف السياسية و النفسية التي كان يعيشها مسلمو الأندلس ،و في ظل القمع و الاضطهاد الرهيب الذي فرضته عليهم العصب الكنسي و الملكي و الهمجي.لقد كانت محنة مسلمي الأندلس و الرغبة في تلبية ندائهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منهم ،مِحَكا و مخبر لإفراز الرجال و الطاقات التي تكون في مستوى المرحلة ،فكانت البحرية الجزائرية أهلا لها في تلك الظروف السياسية ،المتأزمة التي تعذرت فيها لغة الحوار استفحلت البحرية الجزائرية لتضرب في عمق سواحل الإمبراطورية المسيحية الإسبانية و تعرقل طرقاته التجارية[17].

سجل التاريخ ما بين 1563 و 1571 م أعظم الأحداث الجسام في تاريخ التصادم بين الروح الصليبية و المد الإسلامي ففي عهد كل من البايلرباي «حسن باشا «و «علج علي «سجل الحضور المكثف للبحرية الجزائرية في عرض البحر المتوسط ،أعنف هجماته على الملاحة البحرية الصليبية ،كما أحدثت أخبار المقاومة المورسكية المسلحة بجبال البشارات 1568 و 1570 م المدعمة من قبل البحرية الجزائرية أعظم التضحيات.

كذلك انهزام الأسطول العثماني أمام التحالف الصليبي الكبير في معركة ليبانت و نجاة أسطول الجزائر من التحطم في هذه المعركة بفضل حنكة رايسها «علج علي»و الذي غدا أميرال الأسطول العثماني ،فكل هذه الأحداث أضرمت من سعير الحقد الصليبي ضد الإسلام ،و في المقابل جعلت من الجزائر دار الجهاد الإسلامي التي تعلق عليها أمال المسلمين في الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط[18].

كان بحارة الجزائر ينشطون بدافع ديني يدفعهم للهجوم على المسيحيين ،و لذلك فإن النشاط الذي مارسته البحرية الجزائرية خلال القرن 16 م عبارة من جهاد بحري و امتداد للحروب الصليبية و ذلك نظرا لأسبابها الدينية و دوافعها العاطفية ،و بالتالي لم تكن الفوائد المادية التي جنتها الجزائر من جراء الجهاد البحري هدفا رئيسيا للقرصنة[19].

أدى مجاهدوا الجزائر دورا هاما في قيادة الأسطول العثماني أو في إعادة بنائه و تدعيمه ،كما شاركت البحرية الجزائرية التي كان يقودها رياس محنكون في معظم الحروب البحرية التي تسنتها الخلافة العثمانية على الدول الأوروبية الصليبية ،أو في محاصرة و احتلال الجزر التي كان المسيحيين يسيطرون عليها ،أو في تحرير أراضي المسلمين كتونس و طرابلس من وطأة الصليبيين الأوروبيين ،وقتها كانت الجزائر بمثابة سيف الإسلام المسلول في وجه الإمبراطوريات الصليبية بالجزء الغربي من الحوض المتوسط ،و هذا ما دفع بالمؤرخ المؤرخ الأمريكي»وليام سبنسر «إلى القول:».. إن مدينة الجزائر كعاصمة لدولة مستقرة و قوية في شمال إفريقيا قد مثلت... طرف القوة الإسلامية العثمانية القاطع و المنهمك في المقارعة الصليبية ضد المسيحية ،كالشفرة الحادة المدفوعة بعمق في التراب المسيحي «.

مرحلة الغزو البحري أو (حرب المغامرات):أُعتبر القرن 17 م عصر البحرية الجزائرية الذهبي ،فقد شمل نشاطها البحر المتوسط كله ،و امتد إلى سواحل أوروبا الشمالية و البرازيل و ايسلندا ،و الأراضي الجديدة ،ففي الفترة بين 1621 و 1627 م كان في الجزائر 20 ألف أسير فلامنديونو إيقوسيون ،إنجليز و دانمركيون،إرلنديون و هنغاريون ،أسبان و فرنسيون ،إيطاليا و سوريون

،و مصريون و يابانيون ...،و أناس من إسبانيا الجديدة ...،فكل أمة كان لها في الجزائر طابور من الأسرى ،و من المرتدين (العلوج) و تجاوزت الغنائم في أوائل هذا القرن ما قيمته ثلاثة ملايين جنيه ففي بداية القرن 17 م أصبحت الجزائر مدينة في حجم المتوسط الذي مدت فيه شباك قراصنتها حتى سواحل إنجلترا و سواحل إسلندا ،لقد شكلت ظاهرة عالمية أدت إلى ولادة مؤسسات لاسترجاع الأسرى منها و افتدائهم ،و عملية تبادل الأسرى و السلع غيرت من جغرافية الأسواق و التجارة فولدت روابط و اتصالات و وسطاء[20].

تطور الأسطول الجزائري في ظرف قرن ،فخلال الفترة 1529 و 1579 م ،كان الأسطول الجزائري حسب الظروف يبلغ ما بين خمس و ربع مجموع الأسطول العثماني ،أما في النصف الأول من القرن 17 م فقد صار الأسطول الجزائري يشكل ما يعادل ثلث أو نصف الأسطول العثماني ففي هاته الفترة المفصلية ،اتخذت القرصنة طابع المؤسسة الخاص من أجل الربح بصورة شديدة الوضوح ،و كانت سفن القرصنة إما ملكية لكبار القراصنة و الحكام ،أو لشركات ذات أسهم يتم فيها توزيع الغنائم حسب قواعد[21].

أما عن علاقة النظام الحاكم بمجاهدي البحر ،فقد كانت القرصنة تستفيد كثيرا من المساعدات المباشرة و غير المباشرة التي كانت الدولة تتكفل بها فوسعت و وطدت المنشآت البحرية و كان للحكام مصلحة مباشرة في تنمية الجهاد البحري سواء باعتبارهم من أرباب السفن أو لكونهم أكبر المُلاك لآلاف العبيد الذين كانوا يُستعملون كمجدفين في هذه السفن كما كان الباشا الذي له مثل كلّ كبار الحكام نصيب في الجهاد ،و قد تكون عدة سفن ملكا خاصا له...

كما كانالجهاد البحري تضمن تشغيل ربع القوة العاملة في الجزائر ..»[22].

ساهمت البحرية الجزائرية و مجاهدوها في تطوير الاقتصاد الجزائري و جعل مدينة الجزائر ،مدينة ثرية مزدهرة ،و في هذا يقول الإخباري الجزائري «ابن الرقية التلمساني «:(... الجزائر عامرة ،كثيرة الأسواق ،كثيرة الجند حصينة،... و مرساها عامر بالسفن ،و رياسها موصفون بالشجاعة و قوّة الجأش و نفوذ البصيرة في البحر ،و يقهرون الناصرى في بلادهم ،فهم أفضل من رياس القسطنطينية ،كثيرا و أعظم هيئة و أكثر رعبا ،في قلوب العدو فبلادهم بذلك فضل من جميع بلاد إفريقية و أعمر و أكثر تُجارا ،و فضلا و أنفذ أسواقا و أجود سلعة و متاعا حتى أنهم يُسَمونها إسطنبول الصغرى)[23].

لم تكن رفاهية الجزائر التي استمرت إلى منتصف القرن 17 م و الرخاء الذي ساد مدينة الجزائر و نواحيها،إلا تحصيل حاصل لنشاط البحرية الجزائرية و المغامرين الجزائريين الذين طبعوا هذه الفترة بطابعهم إن توقف ،إذن في سنة 1574 م في المتوسط هو الحروب الكبرى(حرب الإرمادات)أي حروب كل من الدول و الحضارات ،التي ما إن انتهت حتى توجه محاربوها و تجارها و رجالها و أحيانا سفنها ،توجّهوا جميعا إلى الحروب الصغرى(حرب المغامرات)التي شكلت القرصنة وجهه الأبرز.

مرحلة الدبلوماسيةأو(شرطة البحر):و فيها كانت البحرية الجزائرية تراقب تطبيق السفن الأوروبية لبنود المعاهدات التي و وقعتها بلدانهم مع الجزائر[24].

لم تكن عملية النشاط البحري عملية عشوائية ،و إنّما كانت منظمّة لها هياكلها

و مؤسّساتها التي أضفت عليها طابع العملية الحكومية البعيدة عن النرجسية و الأعمال الفردية ،ففي إطار إعادة التنظيم الأساسية لبنية الحكم أُنشِئَت هيئات قيادية جديدة في البحرية ،و قد أخذت هذه الهيئات وقتاً كما كان للقائمين على إيجادها عدّة محاولات لذلك.

أهم هذه الهيئات لتنظيم النشاط البحري و شؤون البحرية نجد: ديوان الرياس الذي يعتبر من الهيئات الجديدة المنبثقة عن الديوان العام ،و تعود فكرة إنشائه أو مبادرة ذلك إلى»مزمورتو «فحسب رسالة للقنصل الفرنسي مؤرّخة بتاريخ 23أفريل1687م،أن «موزمورتو «جمع ديوان الرياس ثلاث مرات لمناقشة مسألة السلم مع فرنسا ليدل ذلك أن ديوان الرياس كان له نفوذ كبير في السلطة ،إضافة إلى أنه بالاستثناء إلى تاريخ الرسالة كان موجودا قبل ذلك و إلا فكيف كانت له تلك المكانة[25].و طائفة الرياس:التيتكونت البحرية الجزائرية منذ وصول العثمانيين إليها من الجهاد البحري الذين التحقوا بـ»خيرالدين»،و مع تعاظم دورهم ،و تزايد أهميّتهم للإيالة كعصب للنشاط البحري،حيث أنشئت طائفة الرياس ،و التي أُخذت من مرسى الجزائر قاعدة لها.

مع تزايد النشاط البحري ،شكّلت هذه الطائفة المحرّك الأساسي للإيالة ،و ساهمت بشكل كبير في ثراء الإيالة،و صاَحب تزايد هذا النشاط مع تزايد حجم الغنائم،و عدد الأسرى خاصة بعد توسيع نطاق نشاطها من المتوسط إلى الأطلسي[26].

خاتمة: مع نهاية القرن السابع عشر بدأت الغنائم البحرية في النضوب و عليه تراجع النشاط البحري الجزائري كثيرا مما أثر على وضعية الاسطول و تراجع عدد سفنه وحتى رجاله نتيجة اختلال موازين القوة بين الجزائر و القوى الاوربية التي طورت من قدراتها القتالية البحرية، فضلا على عقد معظم الدول الاوربية لإتفاقيات ضمنت بموجبها سلامة بحريتها و حرية تجارتها.

الهوامش :

1 – محمد أمين ،القرصنة و شروط افتداء الأسرى بالجزائر في القرن الثامن عشر،في:المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، 21 ،مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات،زغوان ،تونس ،سبتمبر ،2000 م،ص 24.

2 – محمد خير فارس،تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاستعمار الفرنسي،ط 2،مكتبة دار الشرق،بيروت ،1979 م،ص 89.

3 – زكي مبارك ،الجهاد البحري في الغرب الاسلامي–المفهوم الاسلامي والمفهوم المسيحي– ،في:مجلة البحث العلمي،السنة 31،عدد 45،جامعة محمد الخامس،الرباط–المغرب–،1998 م،ص 16.

4 - Diego de Haédo, Histoire des Rois d'Alger ,traduit par :H.D.D.E ,Grammont Adolphe, Jourdan ,Li-braire-éditeur ,Alger,1881,p19.(

5 – صلاح العقّاد،المغرب العربي دراسة تاريخية الحديث و أوضاع المعاصرة ،(الجزائر ،تونس ،المغرب الأقصى)،ط5، مكتبة لأنجلو المصرية ،القاهرة ،1985 ،ص،ص230–321.

6 - Moulay Belhamissi, Histoire de la marine Algérienne1830-1515 , E.N.A.L, Alger, 1983,p49.

7 – المنور مروش ،دراسات عن الجزائر في العهد العثماني (القرصنة–الأساطيل–و الواقع)، ج 2،دار القصبة للنشر ،الجزائر ،2009 م،ص 193.

8 – جمال الدين سُهيل، ملامح من شخصية الجزائر خلال القرن 11 هـ–17 م،مجلة الواحات للبحوث و الدراسات،قسمالتاريخ،المركز الجامعي غرداية–الجزائر–،العدد 13(2011):158–137،ص140.

9 - Grand Champ, Une mission délicate en barbarie, jean baptiste salvago, in:R.T. 1937,2eme partie ,pp471472–.

10 – يحي بوعزيز ،علاقات الجزائر الخارجية مع دول و ممالك أوروبا (1500–1830)،الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية ،1985 م،ص 11.

11-Dan»LePéré,«HistoiredeBarbarie et de Ses corsaires,paris,pierreracolat, MDCLIX1637,,p315.

12 – ابراهيم سعيود ،القرصنة المتوسطيّة خلال الفترة الحديثة ،مجلة الواحات للبحوث و الدراسات ،جوان ،2011 م،المطبعة العربية ،المركز الجامعي غرداية ،ص 145.

13 – عائشة غطاس،العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر 1619–1694م،مرجع سابق،ص 19–22.

14 – جيروم ب وايز ،المغرب و قراصنته المغاربة في القرن السابع عشر،تع:طارق العسكري وعبد الهادي التازي ،في:مجلة البحث العلمي ،جامعة محمد الخامس ،السنة 16 ، ع 29–30 ،الرباط–المغرب–،1399 هـ/1979 م،ص،ص 14–17.

15–جون.ب.وولف ،جون.ب.وولف،الجزائر و أوروبا 1550–1830 م،تر:أبو القاسم سعد الله،دار الرائد الجزائر،2009 م،ص 191.

16-LemnouarMerouche,Recherches sur L'Algérie à l'poque Ottomane ,v2,La course mythe et réalité ,édition Bouchene ,France,2007,P106.

17 – حنيفي هلايلي ،التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني،مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، ع 24،دار الهدى للطباعة ،عين مليلة ،الجزائر،2007م،ص257.

18 – يحي بوعزيز،الموجز في تاريخ الجزائر،ط2،مرجع سابق ،ص 178.

19 – جيروم ب وايز ،مرجع سابق ،ص 25.

20 – زكي مبارك ،مرجع سابق ،ص 20.

21 – محمد طمّار ،الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ،الجزائر ،1983 م،ص248.

22 – ابن رقية التلمساني الجديري ،الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 1626م،ص 18.

23 – أرزقيشويتام ،دراسات و وثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519–1830م ،دار الكتاب العربي ،2010م،ص41.

24 - LM.Chaillou, texte pour servir à l'histoire de d'Algérie au XVIIIème siècle1979, ,p24.

25 – محمود السيّد الدعيم ،تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد الخليفة العثماني سليم الثاني 1574،منشورات اتحاد المؤرخين العرب ،القاهرة ،1994،ص 15–13.